

مصادر كتابة تاريخ هيبون (Hippone) | د. محمد عيلان
الثقافي - مقارنة أنثربولوجية - | ق. اللغة العربية وآدابها
جامعة عنابة

تتم الشعوب بثقافتها وتبحث عن أي مصدر تعتصره لتصل إلى معلومات تضيء ما غمض عنها لتكوّن حلقات تاريخها ولتحدد معالم أسلافها وإنجازاتها ومهاراتها وأثرها في محيطها الدولي في مختلف الاتجاهات، فتتجلى ملامح تميزها وتفرداها في بيئتها، وتصل في النهاية إلى خصوصيتها الحضارية .
ومن هنا يأتي الاهتمام بتاريخ " هيبون " ، هذه المدينة العتيقة التي تعد من أقدم مدن المتوسط على ضفته الجنوبية، وفي الوقت نفسه هي مرفأ من المرافئ التجارية العالمية الكبيرة الذي تواصلت الحركة به عبر زمن وجودها .
ولا يعني الاهتمام بتاريخ "هيبون" وثقافتها البحث عن خصوصية مميزة في المجتمع الجزائري ، بل إن الاهتمام بتاريخنا وثقافتنا الوطنية والبحث عن مصادره حيثما وجدت وكتابته يعد عملا وطنيا ضروريا ، لأن الجهود تتكامل في كتابته (أي التاريخ الوطني) والعناية به عناية تجعله يحتل الصدارة في أعمالنا العلمية .

إن الأنظار متجهة الآن إلى العناية بتاريخ "هيبون" (1) والبحث عنه وتقريبه من الشباب بل ومن الأجيال القادمة لخلق وعي به و بما أنجزه أسلافنا في ظروف حضارية طال أمدها، وعرفوا خلالها صراعات طويلة أظهروا فيها بطولات خارقة من أجل أن يبقى للأحفاد ما يستثمرونه الأجداد .

ومن هذا المنطلق يأتي مقالنا هذا لتحديد معالم المصادر التي يمكن الاستفادة منها في كتابة التاريخ الثقافي "لهيون" — ويمكن أن تعمم الرؤية على كتابة التاريخ الثقافي لمدن أخرى مشابهة — وإعادة قراءته قراءة علمية نصل من خلالها إلى نتائج ما كانت تتحقق لو لم نعد إلى تلك المصادر .

إذن السؤال كيف نكتب تاريخ "لهيون" الثقافي الذي أسهمت فيه عناصر متعددة من المحلي الأصيل إلى الوافد عن طريق البحر أو البر من شعوب الحضارات المتوسطية والأسبوية فكانت ثقافة تمازجت عناصرها وظلت تراثا خالدا نشهد له ترسبا بالأذهان والممارسات ، و في الوثائق والمخطوطات ؟ .

لكن أين هذا التراث ؟ لماذا لم يدون لماذا لم يهتم به؟ كيف نصل إليه؟ هذا هو مجالنا، وهذا هو دورنا، أمام شح المصادر والمراجع التي بين أيدينا — وهي شحيحة فعلا — الأمر الذي يجعلنا ننقب عن المعلومات التاريخية هنا وهناك ، ونقلبها ونبحث عما وراءها، و نرجع إلى بقايا الإنجازات والمهارات والانظمة وحالات السلم والرخاء وما ترسب من ممارسات وسلوكات عملية أو قولية .. ونعيد قراءتها وهي كلها ظروف وأحداث عاشها الانسان وتفاعل معها فأبدع وأنتج وأثرى ثقافته التي ظلت حلقاتها متصلة قوية لايمكن فصلها عن بعضها .

لذلك فإننا شرعنا في البحث عن هذا الموروث الحضاري "لهيون" في مظانه ، ونحاول من خلاله أن نقيم الهيكل العام له . وبعبارة أخرى إعادة بناء التاريخ الثاني الذي شهدته . وحتى يتضح الأمر جليا فإننا نعني بالموروث الحضاري "لهيون" الحصيلة المتبقية من الإنجازات والآثار المادية والفني، وكذا فنون القول المتداولة شفاهيا أو المكتوبة في اطار زماني أو مكاني، وسواء أكان هذا الموروث ما تبقى من الفترة التي سبقت مجئ الإسلام وما زالت له شواهد، أو ما تبقى منه في المتاحف أو في أماكن مختلفة من البيئة الجزائرية مترسبا تبتدى

في أشكال متنوعة، وسواء أكان محليا ، أو محليا عربيا، أو متوسطيا، أو افريقيا تـمازج الكل وكون الموروث الحضاري للمنطقة .

إن عملنا يستهدف توظيفا جديدا للمصادر المتوفرة بشتى أنواعها ووضعها في سياقها الثقافي وبالتالي الحضاري، و البحث عما فقد وأكله النسيان أو الذي أسقط عبر منافذ غربال الكتاب والمؤرخين (لاعتبارات ايديولوجية)، لإقامة الصرح الثقافي "لهيون" . ولذلك فإننا نرى أن المصادر التي يمكن اعتصارها والاستفادة منها هي :

1 — الآثار في المتاحف وفي الطبيعة :

الآثار موجودة ومحفوظة في المتاحف أو عارية في الطبيعة أو في الردم تحت أكوام التراب أو الرمال والانسان يكتشفها ويسعى للحفاظ عليها باعتبارها جزءا من ذاكرته، وهي مصنفة بحسب العصور والجماعات والبيئات، وتشمل منجزات الانسان المادية : الحرفية كالمصنوعات البحرية و الحجرية والخشبية والفخارية، وآلات الصيد البحري والبري والآلات التي ساعدت على انجازها ومدى ملاءمتها للبيئة التي أنجزت فيها والتأثيرات الحضارية الأجنبية أو المحلية، ويضاف إلى ذلك الابداعات الشعبية الجماهيرية المتنوعة التي تتواصل عبر العصور وتبدو آثارها في هذه المنجزات .

ومن الآثار يمكن تبين ما يلي :

1 — المستوى الحضاري المعيشي الذي كان عليه الإنسان، وتلاؤمه مع بيئته نفسيا واجتماعيا، وكيف استطاع أن يكيف رغباته وحاجاته مع الإمكانيات التي توفرها له . ثم التطور الذي حدث في الأجيال المتعاقبة . وما هي بصمات كل جيل عاش "مهيون" ؟ . وهكذا تتراكم معارفنا عن الأجيال المتعاقبة من خلال قراءتنا لمحتويات آثارها الشاهدة .

2 — تتيح لنا الهياكل المختلفة الباقية في مجال الأبنية والمقابر والمعابد، مقارنة ملامح الانسان الجسمية، وقدرته وطاقته واحتياجاته العمرانية . فمثلا سنعرف الكيفية التي بنى بها منزله وطول الأبواب وعرضها، ونظام التسقيف والصرف الصحي ، وطريقة الحصول على المياه، وكيف كان يلبي حاجة أسرته وعددها ، وعدد أفرادها . والمساحة التي يشغلها البيت التي تحدد في جانب كبير منها مكونات الأسرة ونظامها المعيشي اليومي والسنوي ..

إن أغلب آثار "هيون" المتوفرة الآن رومانية، ولكننا نعتقد أن تنشيط الحفريات بهيون سيتوصل من خلالها إلى ما كان مجهولا من منجزات سبقت الفترة الرومانية . ثم إن عملية تحدد المعلومات الثقافية عن المدينة تظل قائمة بتحدد الحفريات ومواصلتها، وقراءة ما يُعثر عليه . والآثار في واقع الأمر ليست هي الموجودة حاليا فقط، فهناك آثار في مواقع أخرى بالقرب من مدينة عنابة الحالية لم تكتشف لأن المدينة عرفت مواقع متعددة ذكرها المؤرخون (2) . بالإضافة إلى ذلك فإن علماء بيولوجيا البحار يقولون بأنه توجد آثار زحف عليها البحر، ومنتظر ما يمكن أن يتوصل إليه معهد بيولوجيا البحر بجامعة باجي مختار بعنابة في هذا الموضوع ، فتزداد معارفنا عن ماضي "هيون" ..

3 — الوصول إلى المعلومات المختلفة التي راعها المعماريون الفدامي في دراسة عوامل المناخ وبناء الدور والقصور ودراسة التربة ومراعاة المخاطر والتحصينات المختلفة للحماية من الغارات البشرية والحيوانية الضارية . فنحن الآن نقف أمام كثير من الآثار المعمارية التي كانت عبارة عن مأوى للسكن ولأغراض أخرى نجدها منجزة بدقة بحيث تتوفر لها عناصر عمرانية ضرورية مهمة في كل بناء وهي :

- أ — الأبنية تدخلها الشمس طيلة السنة .
- ب — غير معرضة للتيارات الهوائية التي تضر بصحة الانسان ، أو تستلف المدخرات الغذائية أو الانتاجية للأسرة، أو التي تلك التي كانت الدولة تدخرها لفترة طويلة لمواجهة الأزمات ببيعها أو مقايضتها .
- ج — محمية من تغيرات المناخ وتبدلاته وتأثيراته، خاصة في الشتاء عند سقوط الأمطار أو الثلوج، بحيث لا تؤثر فيها بحكم النظام العمراني الذي عرفه بانوها . إن كل ذلك يكون مجالا ثقافيا عمرانيا مهما يسهل دراسة الانسان وأساليبه ومزاجه وتلاؤمه مع ظروف البيئة، وهو أمر نحتاج إليه في تتبع التطور المعرفي للإنسان من جهة ومن جهة أخرى معرفة أساليب ومساقات تراكم معلوماته .
- 4 — النظام العمراني وهو مجال لتحديد العلاقات ، كالجوار وعلاقات العمل ومراعاة الجانب الصحي وما ينشأ عن ذلك من تقاليد ، إذ يمكن العودة إلى المدينة وتنظيماتها من حيث توزيع المرافق العامة ، كالحمامات والحارات وأماكن العبادة ، وتوزيع الحرفيين في العمل والإقامة ، وبعبارة أخرى تبين نظام بناء المدينة القديم حيث التوزيع المكاني للطبقات ، ومكان كل طبقة وحرفة ومهنة وأهميتها بالنسبة للسلطة والمجتمع . ومثال ذلك فإن دراسة حجم الأسواق اليومية والأسبوعية وعددها وموقعها ، تحدد النشاط التجاري للسكان وتقريب السلع الاستهلاكية من مختلف الفئات المتواجدة داخل المدينة ، واختصاص كل سوق ، وكذا الحمامات وعددها وموقعها وهي ظاهرة حضارية مهمة أساسية في رقي الانسان، لأن من خصائص المجتمع الذي يسمو لأن يتحضر هو تطلعه إلى العناية بنفسه صحيا وجماليا، كل ذلك مجال لتحديد العلاقات الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع من جهة ومن جهة أخرى معرفة النظام السياسي الذي نمت في كنفه .

5 — نظام المرافق العامة والصرف الصحي والجاري ، وتخزين المياه وحمايتها من التلوث وطريقة إعداد الخزانات وتجميع ونقل المياه من أسفل المدينة إلى أعلاها ونظام الآبار ، وكيفية استغلال المياه في الاكثار من المزروعات ومنتجاتها وحضور مزروعات دون مزروعات أخرى ، والصناعات التحويلية وخاصة ما توحى به الأدوات والصور والنقوش المتحفية .

6 — معرفة أساليب التخزين ومواجهة الحصار والكوارث الطبيعية لسنوات طويلة ، كتخزين الحبوب القمح والشعير وغيرهما في خوالي تزن الواحدة صاعا ، والفول والحمص والبقول في أماكن حيث تكون معرضة للهواء وبعيدة عن الرطوبة . وقد يلجأ كثير من الناس إلى تخزين الحبوب في مطامر خارج المدينة وهي عبارة عن حفر مقعرة وفمها ضيق ، معدة على نحو خاص تحمل في جوفها ما يقرب من 10 إلى 15 قنطارا، تحفر في الأرض بعيد عن مسيل الماء، تملأ وتغطي وتترك سنة كاملة أو سنتين يخزن بها القمح والشعير . أضف إلى ذلك تخزين المخلفات كما سنذكر .

7 — تطور المناخ ومعرفة تغيراته ورصده سواء بتقلياته أو بعلامات في البيئة، كرصده حركة الطيور المهاجرة أو ظهور نباتات معينة إلى غير ذلك، وما زالت آثار ذلك إلى يومنا هذا، من مثل معرفة حلول فصل الربيع بعودة اللقلق ، وقد جاء في الأمثال التي ترسبت دلالاتها قول العامة على لسان اللقلق (بلارج) : (لَوْ يُفَوِّئِي فُرَارَ بَنَهَارٍ نَقُصَّ جَنَحِيَّ بِالْمُنْشَارِ) . وكذا معرفة فصول السنة وخصائصها بقولهم : (ثَلَاثَةُ سَرْدِي بَرْدِي ، وَثَلَاثَةُ قَطِيفٍ مُسَدِّي ، وَثَلَاثَةُ نَارٍ تَقْدِي ، وَثَلَاثَةُ كُولٍ بَرَكٌ) . وقالوا أيضا في خصائص الفصول : (فَاكْهَةِ الشِّتَاءِ نَارٌ ، وَفَاكْهَةِ الرَّبِيعِ ضَرَعٌ وَنَوَارٌ ، وَفَاكْهَةِ الصَّيْفِ غَمَارٌ وَفَاكْهَةِ الْخَرِيفِ ثَمَارٌ) وحددوا خصائص الشهور وأثر مناخها على الانسان وعلى الحيوان والمحاصيل الزراعية . وتحديد رأس السنة البربرية التي

روى الكثير من الفلاحين كبار السن بجهات غنابة والأوراس وسطيف وقالة وسوق اهراس أنها تبدأ بيوم 08 يناير ويسمى السكان أول يوم فيها (يوم التَّايَر أو عيد النايِر) وترتبط بذلك عادات وتقاليد مهمة للباحث في ثقافة المنطقة، إذ أنهم في هذا اليوم يحتفلون بذبح الديكة الرومية أو الدجاج الأهلي المرابي ويعدون "البركوكس" باليقطين أو "الكابوية" ويتبادلون المأكولات ويسهرون على مواقد النار، يلعبون الخاتم أو يغنون ويرقصون قرب مواقد النار إلى الصباح . وهناك عادات كثيرة متعلقة بهذا الشهر ليس مجالها، وإنما ما أذكره هنا هو التمثيل لكيفية التعرف على التاريخ الثقافي للمدينة من خلال موروثها الشعبي ويزر ذلك أشد ما يبرز في المثل الشعبي ولنا في ذلك دراسة مخطوطة . وكقولهم أيضا في فرار (فيفري) وهو شهر بداية الربيع (يوم 21 منه) عند فلاحى الشرق الجزائري (3) : (في فرار تتلحق الأشجار، وتزواج الأطيار، وتظهر الحائلة من الأعشار) . (فرار بو سبع تغليات في النهار)، أي أن الجو لا يستقر على حال فهو يتقلب بين صحو واكفهرار . وفي مارس : (مغرس بو الثلوج)، (وأذا رعدت في مغرس هي الخيل غلّاه تدرس)، لأن المحصول سيكون وفيرا وخاصة التبن .. وقولهم في ابريل : (ابرير يجدها من قاع البير وإلا ينسف عليها تطير) كناية عن أن أمطار افريل مهمة للحبوب وللطماطم المزروعة باكرا . ومثلها بقية الخضر فهي وإن كانت لم تبرز إلى السطح فإنها بحكم الأمطار المخصصة فإنها ستنمو وتثمر . وفي أواخر هذا الشهر تظهر تقاليد متعلقة بممارسات طقسية مهمة وفدت مع الفينيقيين ويرمز من خلالها إلى الإله بعل أو الإله "تموز" الذي يخصب الطبيعة (حسب زعمهم) في هذه الفترة لذلك فإن هذه الأمطار يقولون عنها : (امطار التَّيَّسان أو أمطار نيسان) ويخرج الأهالي يجمعون ماءها ورؤوسهم حاسرة، فتسقط عليها الأمطار المقدسة التي تمنح الصحة والخير حسب زعمهم ، وتجمع الصبايا منها كمية للتطهر بها

يوم زفافها، حتى تكن مخضبات وتنجن الكثير من الأبناء الذكور، وتعملن بها أشياء أخرى لاجمال لذكرها هنا . وابتداء من هذا الشهر إلى نهاية الخريف تبدأ ممارسة التقرب من الأولياء والصالحين ومنابع الماء، (كالقطارة ورأس الحمراء) وإقامة الزرد وقد تبعهم اليهود في ذلك فكانوا يختارون هذه الفترة لإقامة عيد (الهيولة) (4) وقولهم في مايو : في مايو هاتو المناجل وهايو أي الذهاب إلى الصحراء للعمل ، حيث المزروعات تجنى قبل الشمال، وفي هذا الشهر تجز الأغنام وتعد أصوافها لإعداد المنسوجات والفرش .. وفي 21 مايو يبدأ الصيف . أما في يونيو فتبدأ عملية حصاد (الفريك) وحصاد (الرمز) والمزروعات المبكرة .. وفي يوليو يتم جني المحاصيل الزراعية كالطماطم وتخفيفها وكالقمح والشعير، وكذا جني العسل وتخزينه في الأواني الفخارية أو الخشبية أو في قوارير زجاجية، والذي يصدر يُعد في براميل وخوابي كبيرة يؤتى بها إلى الميناء .. وفي هذه الفترة تنشط الأسواق التجارية بالمدينة (5) إذ كل سوق لها خصائصها في المبادلات مع الوافدين من عمق الجزائر ومن البحر، وكانت هذه الأسواق رائجة ومنتعشة بالبضائع الأجنبية والمحلية، وكان كثير من عمال السفن وملاحها يقومون بالتجول في هذه الأسواق، ويأتون ببضائع تساعد على مبادلتها لاقتناء منتجات ومصنوعات جزائرية و"هيونية" بالخصوص . وهكذا اختلطت المنتجات المتنوعة وتنوعت مصادرها وكومت "لهيون" عبر تاريخها تراثا حضاريا لا يضاهاى .. وفي هذا الشهر يتهيا الشباب غير المتزوج لإعداد الأسر، فتبدأ احتفالات الزواج عبر المدينة والقرى المجاورة لها . وفي هذا الشهر أيضا يبدأ تخفيف السمك الذي يعد للتصدير أو الادخار . ويكثر الصيادون من الصيد، ولهم في ذلك ممارسات عجيبة في الصيد مع الليالي القمرية وغير القمرية، وفي الغوص وعدمه بحثا عن المرجان وعن الأصداف .. وقالو في شهر غشت (أوت) : إنه شهر الحر الشديد، وهو عصرة الصيف، وهو "السامة" التي

لا يضرب فيها الطفل ولا تترك الحيوانات خارج المنازل أو بعيدة عن الظل أثناء القيلولة .. وهناك ممارسات ومعتقدات عديدة تتعلق برصد أحوال العام وخصب السنة ودرجة الرطوبة التي يكون عليها العام أو الموسم .. وهي أمور تحتاج إليها حين نشرع في دراسة هذا الموضوع .. أما شهر شتمبر (سبتمبر) وتوبر (أكتوبر) ونوفمبر (نوفمبر) فإنها شهور للحراثة والبذر وإعداد الأرض وتطويعها للزراعة والغرس، و جني الزيتون وعصره، والسفر لجلب التمور وتهئية الحطب لمواجهة برودة الشتاء .. أما شهر ديجمبر (ديسمبر) فهو الشهر الذي تبدأ فيه الليالي التي تسمى ليالي الشتاء الطويلة ، وفيه تجوع الحيوانات، ويطول الليل ، كما لا يذهب فيها الصياد البحري إلى الصيد لأن الأمواج التي تكون بالليل قد تغرق الصيادين . والليالي عبارة عن أربعين يوما مقسمة إلى قسمين : ليال بيض ومقدارها عشرو يوما ومثلها ليال سود، وهذه التسمية بحسب لون أغصان الأشجار النفضية، فحين تسود الأغصان وتتهيا لإبراز القروح التي تظهر منها الأغصان ومدتها عشرون يوما يقول سكان المنطقة : (نحن في الليالي السود) . وحين تبيض يقولون : (نحن في الليالي البيض)، وفي هذه الليالي ممارسات متنوعة في الأكل، كأن تؤكل "الكابوية" اليقطين كثيرا ويؤكل "القديد" والمخللات التي أعدوها في نهاية فصل الشتاء، وهي عبارة عن مهروس الفلفل الحار والطماطم وبعض الخضراوات الأخرى تحفظ خلال الصيف في خوابي تفرغ من الهواء ثم تغلق بالجبس حتى لا يتسرب إليها التلف، وتوضع في أقبية باردة أو تدفن في الأرض .

وفي الليالي يتهيا الفلاحون لعزل الدجاج الذي يحضن البيض، لأن الدجاجة في الليالي تمكث كثيرا على بيضها، ولذلك فإن ما يفسد منه يعد قليلا .. ولولا تحاشي الخروج عن الموضوع لقدمت للقارئ ممارسات متنوعة ومتعددة الكثير منها زال وغاب .. كشفنا عن كثير منه خلال عملنا الميداني .

9 — تبين الحيوانات التي كانت بالمنطقة ، سواء تلك التي دجنها الإنسان أو البرية الباقية منها، أو التي انقرضت، كالأسد البربري والفيلة التي كانت بالمنطقة ، كما تشير الآثار والرسوم .

10 — تبين المعتقدات والأساطير والخرافات التي عرفتھا الأجيال السابقة، والفلسفة الإعتقادية التي تقوم عليها، وهي مقياس للرقى الفكرى الذى تجاوز الإنسان من خلاله المحيط المادى إلى عالم الخيال والأسطورة .

2 — اشارات المؤرخين :

المعروف عن المؤرخين أن مصادرهم ثلاثة أنواع : المصادر المكتوبة ، المصادر الشفوية والمباشرة، ولذلك فإن معلومات بعضهم يغلب عليها التأثير والأيدىولوجيا والميول الشخصية، وهي عوامل قد لاتكون مرضية للباحث عن حقيقة ما فى ثنايا أخبارهم، إلا أنها مهمة، ويجب اخضاعها لمنطق التاريخ ومنطق التطور الذى يظل سمة روح كل عصر وكل حين، والواقع أن التاريخ يوقفنا على :

1 — الظروف الحضارية المؤثرة فى المجتمع موضوع الدراسة ، من مثل الصراع منذ الألفية الأخيرة قبل الميلاد ، الحروب النوميديّة، القرطاجية، الصراعات البربرية الرومانية بعد الميلاد، الملوك البربر والقرطاجيين، هذه كلها مؤثرات فى توجهات المدينة ونظام حياتها بحكم قربها من منطقة الصراع، وبحكم أنها كانت منطقة صراع من جهة أخرى، وبحكم الاستراتيجية التى تمثلها ثالثا وكل ذلك مع غيره من الإشارات يُستَـيَحُ لنا معرفة :

أ — العلاقات السياسية "لهيون" مع المجتمعات الأخرى .

ب — العلاقات التى عرفت بين الحاكم والمجتمع، وأثر الحاكم فى الوضع الاجتماعى من حيث النمو والتطور، ومدى حضور الحاكم فى مشاريع

المجتمع الصناعية والتجارية، والقوانين التي شملت ذلك وظروف تخطيط المدن وإحكامها.

ج — مواجهة المجتمع للكوارث والحروب التي خاضها، وانتصاراته وانهزماته، وطريقة أنظمة الجيوش التي كانت وأسلحتها، وكذا التطورات والتحديات التي أدخلت عليها. السفن الحربية والجارية التي كانت تصنع بمرفئ المدينة، تطور حرف صناعة السلاح .. صورة المجتمع في ظل الأوضاع الحربية.

د — صورة المجتمع في ظل السلم، مؤشرات انتشار العدل، الرخاء الاقتصادي.

هـ — تطور الآداب والفنون. وفي هذا السياق نذكر أننا في الآداب لم نعثر على تسجيلات وكتابات منقوشة أو مخطوطة لعصور خلت، ماعدا من فترات تاريخية قريبة، وهي كتابات أدبية لكتاب جزائريين بلغات أخرى (6)، ومنذ دخول اللغة العربية الجزائر فإننا بدأنا نعثر على تسجيلات وتدوينات للإبداعات القولية الفنية لأفراد أو جماعات وهو أمر جاء متأخرا بالنسبة لما كان يمكن أن يكون، ذلك أن المجتمعات البربرية التي عاشت بالجزائر، عاشت مرحلة شفوية طويلة لم تعرف خلالها التدوين، ولذلك أسبابه وعوامله التاريخية ولكن الفاتحين الذين جاؤوا بعد المرحلة النوميديّة لم يهتموا بالتاريخ الثقافي للجزائر إلا في مراحل متأخرة.

و الواقع أنه لا يمكننا أن نجزم بانعدام الثقافة والتاريخ الثقافي ورجالاته خلال الفترات السابقة، لأنه لا يعقل أن يعرف البربر الصراعات المتوسطة ويدخلون حروبا طال أمدها ويتعايشون مع شعوب متنوعة الحضارات، ولا يتأثرون بما لدى الشعوب الأخرى من آداب وفنون وفلسفة وعلوم .. ويبدو أن تشتت البربر وتوالي الاستعمار الذي طال أمده عليهم هو السبب في غياب المعلومات التي نحاول أن نعثر عليها اليوم من خلال مصادر غير مصادر المؤرخين

أما في مجال الفنون فإننا لا نجد آثارا لذلك ماثلة أو حدثنا عنها المؤرخون، ومن مثل ذلك ما يذكره ك — ابراهيمي في كتابه (تمهيد حول ما قبل التاريخ في الجزائر) : عند الحديث عن الحضارة القفصية في الجزائر، من أن الناس عرفوا بعض الفنون الزخرفية التي كانوا يزينون بها أجسامهم، ومواد يعلقونها على أعضائهم في مواقع مختلفة من أجسامهم، تشكل نوعا من الحلي الجمالية، وسواء أكانت هذه الزخارف أو هذه الحلي استعملت تعاويد سحرية أو تحملية إلا أنها وسائل متطورة تنبئ عن مرحلة من الرقي الاجتماعي والحضاري متقدمة بالنسبة للفترة الزمنية التي يشير إليها المؤرخون ، يقول الكاتب : (وسواء مارسوا دهن أجسامهم أو وشمها، فإنهم كانوا يزينون بقطع تشترك في ميزة ، وهي أنها مزودة كلها بما يسمح بتعليقها، كالثقب أو الثلمة، وصنعوا كذلك عقودا من قشور النعام) (7) ومثل ذلك ما بقي لنا من حضارة الطاسيلي المدفونة تحت الرمال (8) من رسوم تنبئ من جهة عن مرحلة من مراحل تطور الانسان ومن جهة أخرى الدرجة التي بلغتها الفنون الجميلة في عصور نشأتها ، وهي قياس لدرجة الذوق الفني، وتسجيل الانسان لمنجزاته وسلوكاته بواسطة الفنون غير المنطوقة .

و — تطور المهارات والحرف والمنجزات مع التغيرات السياسية والظروف الدولية .

ز — الهجرات المختلفة للشعوب ونزوحها واكتساحها لشعوب أخرى واستقرارها وتأثيرها، وأثر ذلك في الثقافة وفي الحياة عموما، كمظاهر اللباس والسلاح واللغة ومختلف المعارف والمهارات، وإن انعدم الشاهد فإن الترسيبات اللغوية والممارسات والآثار المتواجدة على مستوى الممارسة كفيلة بإضاءة جانب مهم من ماضي هيبون .

3 — اشارات الرحالة :

يعتمد الرحالة على مصدرين، أحدهما المشاهدة والتدوين للمعلومات ، وهذا المصدر يحكمه التأثر الشخصي، وتأثير العادات والتقاليد والمعتقدات للرحال . والثاني الأخبار المنقولة ، وهي أيضا إما شفوية رواها له من التقى بهم ممن يعيشون في المناطق التي لم يزرها، أو رواها له تجار أو مسافرون عابرون، وإما أنها منقولة من كتب رحالة آخرين دونوا معلوماتهم ومشاهداتهم عن مناطق زاروها ولم يستطع الرحالة المرجع زيارتها أو الوصول إلى معلومات عنها .

وأخبار الرحالة بالرغم من أهميتها فإنها تحتاج إلى أن يتعامل معها الدارس بمنهجية دقيقة لاعتصارها واستخلاص الحقائق المراد استخلاصها منها، لأن أخبار الرحالة يغلب عليها الوصف من غير تحليل أو مقارنة، إلا أنها توفر معلومات مهمة هي :

أ — تحديد المسالك والطرق والممالك والمواقع والأماكن الجغرافية ، والمراسي والموانئ والطرق التجارية البحرية والبرية، وكذا نظم الاتصال، ومن ذلك ما يذكره البكري عن الطريق البحري الذي تسلكه السفن، أو السائرون بمحاذاة البحر من الشواطئ الغربية "لهييون" القرية منها قوله : (.. ومنه تسير إلى مرسى استورة وهو مرسى مدينة تاسقدة (يقصد سكيكدة)، وهي مدينة أولية قديمة ، فيها آثار للأول عجيبة، ثم منه إلى مرسى الروم، وهو مشق مأمون إلى جزيرة غمر، إلى مرسى تكوش مرسى مأمون، فيه قرى كثيرة يتصل به جبل كثير الفاكهة والخير ، ثم إلى رأس الحمراء، ثم إلى مرسى ابن الألبيري، ثم إلى مرسى الخروبة، ثم إلى مرسى منيع وهو مرسى بونة (هييون)، وبقره بير النثرة المذكورة، وهي بير منقورة في صخرة من عمل الأول، على ضفة البحر إذا

ارتج البحر وصل إليها، ومن مرسى بونة تخرج الشواني غازية إلى بلاد الروم
وجزيرة سردانية وكرفسة وما والاها، ثم مدينة مرسى الخرز .. (9) .

ج — الخريطة الإثنية للمنطقة بكل خصائصها العرقية والجغرافية والأثربولوجية
. والتعرف على العوامل الطبيعية المؤثرة في الاقتصاد وحركة التجارة والتبادل
المحلي أو الدولي وأشكال الانتاج . وكذا تحديد تضاريس المنطقة ونمط عمرائها
وأبنيتها . ومعرفة الخصوصية الاجتماعية للسكان، وحركة مسيرهم الاجتماعي
وعلاقاتهم ببيئتهم وأنظمتهم، وغير ذلك مما لا يمنحه لنا التاريخ في الغالب .

ومن ذلك مثلا قول كريخال : (كانت تسمى في القلم هيون ،
وموقعها على ساحل البحر المتوسط وفي خليج نوميديا على بعد أربعين فرسخا
من مدينة تونس، وهي المدينة (يقصد هيون) التي كان اسقفها القديس أو
غسطين في أيام الامبراطور غارسيان، وقد نالت شهرة في عهد القوط ..
ومازالت تشاهد على ضفة النهر أطلال معبد وقصر كبير، وذلك على مسافة
فرسخ ونصف من ساحل البحر في المكان المعروف بعنابة القديمة .. وسميت
عنابة الجديدة، ويسمىها العرب بلد العُنَّاب لكثرة ما فيها من هذه الثمار، أما
المسيحيون فيسمونها بون أي الجيدة .. لأن بها أجود أراضي بلاد البربر وأكثرها
خصبا وأنقاها هواء، تحيط بها أسوار حصينة، ولها بابان رئيسيان يفضي أحدهما
إلى البحر ويفضي الثاني إلى جهة الحصن الذي لا يبعد عنه إلا بمقدار نصف رمية
قوس قذافة، وموقعه فوق ربوة مشرفة على الباب .. ودور هذه المدينة متقنة
البناء، وبها مسجد فخم، وبجانبه مدرسة يتعلم فيها شرع محمد، (الرحالة
مسيحي) وليس بالمدينة ولا بالحصن بئر ولا ساقية وإنما بها خزانات تجري
إليها مياه الأمطار من سطوح المنازل، وهي ذات سقوف مستوية مغطاة بطبقة
من الجير والرمل والاسمنت، وتوجد جنوبي الحصن قريبا من جداره بساتين
ومنتزهات وأجنة كثير، بها اللذيذ الطيب من الثمار . ولعنابة مرسى صغير غير

مستور من ربح الشمال، وتقصده سفن التجارة لشراء الجلد والصوف والسمن والتمر وغيرها من البضائع الوفيرة في هذه الجهات . فهي تتكون من سهول طولها أربعة عشر فرسخا وعرضها ثمانية فراسخ تظهر فيها جماعات كبيرة من البربر تعيش في دواوير مثل العرب، ورجالها أغنياء بما يملكون من الأراضي والخيول والمواشي، وفي كل يوم يهرعون إلى سوق تقام عند أبواب المدينة، يأتي إليها التجار من تونس وجلفة وطرابلس، بل وحتى من جنوة ولهم في الاتجار بها أرباح كثيرة، ويوجد شرقي المدينة شاطئ منحرج يصطاد به المرجان .. أما من جهتي الجنوب والشرق فتجاور عنابة جبال يطيب فيها المقام ويلذ العيش تتصل بجبال قسنطينة وبها كثير من المجاري والحدواول وأنواع من الفواكه والصيد والطرائد، أما في جهة الشرق فتمتد تلال خصبة تحود بها الحنطة، وكانت بها فيما مضى مدن وقرى قديمة من بناء الرومان . وليس بها مدينة ولا قرية وإنما هي مجال لنجعة العرب والبرابر، وبها منابع ماء تجري منها جداول تخترق تلك الجهات وتصب في البحر (10). ويقول البكري : (ومدينة بونة أولية، وهي مدينة اقشيين العالم بدين النصرانية، وهي على ساحل البحر في نشز من الأرض منيع مطل على مدينة سيبوس، وتسمى اليوم مدينة زاوي، وبينها وبين المدينة الحديثة نحو ثلاثة أميال، ولها مساجد وأسواق وحمامات، وهي ذات ثمر وزرع وقد سورت بونة الحديثة بعد الخمسين وأربعمائة، وفي بونة الحديثة بير على ضفة البحر منقورة في حجر صلد يسمى بير النثرة، منها يشرب أكثر أهلها، وبغربي هذه المدينة ماء سايح يسقي بساتين، وهو مستتره حسن . ويطل على بونة جبل زغوغ وهو كثير الثلج والبرد .. ومدينة بونة برية بحرية، كثيرة اللحم واللبن والحوث والعسل وأكثر لحماهم البقر .. وحول بونة قبائل كثيرة من البربر؛ مصمودة وأوربة وغيرهما، وأكثر تجارها أندلسيون .. وبشرقي مدينة بونة مرسى الخرز فيه المرجان ..) (11) .

ز — وتمنحنا أيضا كتب الرحالة وصفا مهما للأسواق والحارات والمرافق العامة، وأحوال المدينة أو البادية التي يمر بها الرحال . وعند استعراض ما كتبه الرحالة الذين مروا على "هيون" ووصفهم لأحوالها وهم أكثر ، سواء أكانوا أجانب أو عربا ومسلمين ، فإننا ننتهي إلى أن "هيون" كغيرها من مدن السواحل ينقسم عمراتها إلى أقسام، بعضه يشرف على البحر، وبعضه الأخرى على البر، والآخر على السفح، والسكان يجتمعون وفق انتسابهم القبلي والاجتماعي والديني والطائفي .

أما الجانب الاقتصادي فإن "هيون" كغيرها من المدن تنتظم بها الأسواق التجارية المختلفة ، وتنشط بها حركة اقتصادية قوية، مصدرها البحر والبر، فالبحر يجلب إليها منتوجات الأمم البعيدة، والبر يجلب إليها منتوجات الجزائر الجيدة الغنية، التي يكثر عليها الطلب في الأسواق العالمية . وعندما تصل هذه المنتوجات إلى عنابة تتوزع عبر مكانين أحدهما المخازن والآخر الأسواق . إلى جانب هذا النشاط الاقتصادي الكبير، كان التجار من الطبقة المتوسطة سواء من الأرياف أو المدن يمارسون أنشطة متنوعة تنمو وتطرد وفقا لأحوال المدينة وظروفها وحركتها، وكان هؤلاء التجار متوزعين عبر أحيائها وأسواقها، يلبون طلبات زبائنهم متنوعي المشارب . كما يقوم فقراؤها وعبيدها — المجلوب — بالخدمات داخل الأسر التي كانت متأثرة بثقافات متباينة وفقا للأساليب المحلية أو الأساليب الأجنبية أو في الأماكن العامة أو لدى الإقطاعيين من ملاك الأراضي الخصبة الشاسعة التي تحيط بمدينة عنابة أو لدى مربّي المواشي وخاصة ما اشتهرت به المنطقة من تربيتها للبقر . (12) .

ح — اشارات الرحالة تمنحنا وصفا للمعتقدات والخرافات والأساطير الموجودة في المجتمعات التي مروا بها أو زاروها وعرفوها معرفة دقيقة . من ذلك مايقوله الحميري الرحالة قوله : (بونة من بلاد افريقية قرية من فحوص قل، وهي مدينة

قديمة من بناء الأول، وبها آثار كثيرة، وهي على ساحل البحر في نشز من الأرض مشرف على البحر وعلى فحوصها وقراها، وهي من أنزه البلاد وأكثرها لبنا ولحما وعسلا وحوتا .. وبغربي بونة بركة في دورها نحو عشرة أميال فيه سمك جليل كثير، وفيها طائر يعرف بالكيكيل، وهو يعيش على وجه الماء ويفرخ، فإن أحس بجوان في البر أو إنسان يروم أخذه، أخذ عشه بفراخه برجليه حتى يصير في وسط البركة حيث يأمن، وهو طائر حسن وهو الذي يسمى بمصر بالغطاس، وتتخذ بمصر من جلوده الفراء للينها وجمالها وتباع بالأثمان الغالية .. (13) . ولعل القارئ الكريم يلحظ أن هذا الطائر لم يعد له أثر بمنطقة هيون، ولذلك علينا البحث عن أهميته وانقراضه في المصادر المختلفة الشفوية أو غير الشفوية .

4 - المشغولات اليدوية :

المتبقية أو التي تنجز في المجتمع الشعبي بعفوية وبتلقائية، وهذه المشغولات اليدوية تنتقل بالتقليد وتحمل خصائص لاثخيد عنها الا بعد طول وقت، لأن تطورها بطيء، ويخضع لعوامل نفسية وحضارية عامة، ومن هنا فإن كثيرا من المشغولات والحرف والمهارات بما لمسات الأسلاف وإن بدت غير ذلك، وهو أمر واضح للدارس . وتمثل المشغولات والحرف والمهارات فيما يلي :

1 - الفنون التطبيقية والجمالية، وهي آثار موجودة ومتبقية في الطبقات الدنيا على وجه الكثرة ، تنتجها وتمارسها مراعاة لقيم وقواعد متوارثة وهي :

أ - الفنون التطبيقية : كالطب العلاجي والروحاني، ومن خلال الدراسة والبحث يمكن الاستفادة من مصادر متعددة كالأثار والترسبات الشفوية والممارسات التي مازالت تمارس، لمعرفة العلاج وطرقه وكيفية تشخيص المرض بالوسائل المختلفة، كالبيضة التي كان السكان يضعون عليها علامات متعددة ، كل علامة تحمل اسم دواء أو اسم معالج ما، ثم توضع في رماد النار، والمكان

الذي تنفجر منه يتحدد من موضعه (المرغوب) ، فإن كانت العلامة دالة على المعالج ذهبوا إليه، وإن كانت دالة على الدواء أحضره، وإن كانت دالة على تحديد المرض تبينوا أمره وسعوا في ذلك الاتجاه (وهذا شبيه بضرب الأقداح عند العرب) .

وقد يلجأون إلى استعمال العصابة (التي تضعها المرأة على رأسها وهي بطول المتر وعرض الخمسين سنتمتر) التي يحددون من خلالها مجموعة من الاحتمالات الدالة على المرض من جهة والمعالج من جهة أخرى، بحيث تربط العصابة من طرفيها لتكون دائرة وتكون مطوية بحيث تشبه الدائرة التي عرضها من 10 إلى 15 سم وقطرها 50 سنتيما، بحسب طول العصابة ثم تدار بطريقة عجلى سبع مرات، فإن جاءت في المغزل مثناة فإن لها معنى كذا، وإن جاءت حلقة فهي كذا، وإن سقطت فثائيا فهي كذا، وإن انعقدت فهي كذا، فهي تماما تؤدي وظيفة كما في البيضة . والعصابة لا يستعملها أي شخص بل إن لها مختصين في الكشف بها، ويغلب على مستعملها النساء . وكذا الفنون التطبيقية الحالية وهي الرسم خاصة، كما هو في الزرابي والمنسوجات ورسومات الصناعات الطينية والحجرية والوشم على الوجه والأذرع والسيقان والظهر والكفين، وهي صور غنية وثرية ترمز إلى الثقافة الكامنة، التي يمكن استنطاقها .

وبذلك يتحدد المرض الذي استعصى علاجه، على سكان المنطقة، وتُعرف عندهم أسبابه وأدويته بيسر، ولا يناقش ما توصل إليه الحكيم الذي ورث هذا التنبؤ والذي أساسه الخرافة وانعدام العلم والمعرفة .

وإلى جانب ذلك يمكن كتابة تاريخ الطب في المنطقة بل وفي الجزائر، لا بالعودة إلى هذه الممارسات وحدها، بل إنه يمكن القول إن السكان المحليين عرفوا العلاج وعرفوا الفناء وتأثيره، وبحنوا عن الخلود وسعوا إليه حثيثا،

وتوقعوا أنه يكمن في الطبيعة أحيانا، وأحيانا أخرى في الطبيعة ومنتجاتها أو كائناتها ..وما القصة الشعبية التي نعرفها جميعا في الجزائر بخافية عنا، حيث يذهب البطل فيها باحثا عن دواء الجلود وهو تفاح الجنة ويسمى : (تفاح اللي يفوح ويرد الروح، ويجعل الشايب شباب والعجوز شابة) .

وإلى جانب الطب البشري هناك الطب البيطري أو الحيواني الذي نما وتطور، ولكنه ليس كالطب البشري الذي امتزج بالسحر والأرواح والكائنات الغيبية، بل إن أغلبه مادي يعتمد العلاج فيه على تجارب متوارثة، والعلاج هنا قد يلتقي مع العلاج البشري خاصة في استعمال بعض الأدوية السائلة أو النباتية المحولة أو غيرها مما يمكن وصفه علاجا شافيا . والملاحظ هنا هو الصدق المطلق فيما يرويه أحدهم من أوصاف مرض وما يلزمه من أدوات أو غيرها، ويبدو أن الصدق في مثل هذه الأمور مصدره أن الصحة والمرض معرض إلى الإصابة بهما كل واحد، ولذلك فإن العامة تخشى الكذب في هذا الموضوع ، وهي ترجع ذلك إلى الخوف من عقاب الله سبحانه بإصابة الكاذب بالمرض نفسه ، وربما هو أكثر، وأيضا فإن هذه المعلومات ليست في متناول أي شخص، بل إن الذي يحددها ويحدد مقدارها هو الحكيم في نظر العامة، بغض النظر عن أن يكون حكيما فعلا أولا .

ب - الصناعات اليدوية بمختلف أشكالها وموضوعاتها . وقد أشار المؤرخون إلى كثرة الأبقار واللحوم بها (14) وما ينجر عن هذه التربية من صناعة الجلود، إذ تبدو المنطقة مركزا رئيسيا لدبغ الجلود وصناعة الأحذية وكل مشتقات الجلود، من مغلفات السفن، والأحزمة، وأكياس الدقيق والملبوسات، وصناعة السروج، والقرب غيرها مما يكون الجلد فيه مادة محولة . والصناعات الطينية والخزفية والفخارية، وكل ما يدخل في احتياجات سكان "هيون"، وما ترغب فيه شعوب المتوسط، فتقوم المصانع بعناية بإنتاجه بكميات وافرة يلي

حاجات المصدرين، وكذا معامل تخفيف السمك وغيرها ويدل على ذلك الأسواق التي كانت بالمدينة والتي عثرنا على نسخة من خريطتها قبل دخول الاستعمار (انظر اسماء هذه الأسواق في الهامش رقم 4 وقد تعذر علينا إضافة خريطة المدينة التي تحدد موقعها وموقع اسواقها وحاراتها وحماماتها ومعابدها ..).

2 — الفنون الجمالية بقسميها : 1 — السمعية كالغناء ، وفي هذا المجال لم نتوصل إلى يومنا هذا إلى ألحان معروفة قديمة عند ساكني "هيون" بحكم اختلاطها وتوافد الثقافات عليها، وتنوع أذواق المقيمين بها، ولذلك فإن ما يتبدى لنا الآن من أغان مصدره المدرسة الإشبيلية التي شاعت طبوعها في الشرق الجزائري وتونس، وبعضه من مدارس أخرى لم تبلغ درجة المدرسة الإشبيلية، ولعل ما يمكن اعتباره أو البحث فيه هو بقايا غناء الفقيرات (يعرفن بقسنطينة بالبنوتات وفي الجزائر العاصمة بالمسَامَعَات)، هؤلاء النسوة اللاتي يمكن العودة إليهن في دراسة أخرى، لكونهن تخصصن في الغناء للحریم، ولكن غناءهن ظل متواترا وغير متطور بالرغم مما يشوبه من مظاهر برجوازية أو طبقية، وفنون قول أندلسية أحيانا، إلا أن فيه ملامح متوارثة، يمكن الوصول إليها بعد دراسة مستفيضة لهذا اللون ولطبوعه ولحامله .. وللأسف فإن المغني "بورقة" والمغني "الكرد" وبعض الفنانين الآخرين في حاجة إلى دراسة في إطار المنطقة لا المدينة .

أما الشعر فإننا لم نعثر له على أثر، ويبدو أن البربر الذين كانوا يقيمون بعنابة أو على مشارفها لم يعرف عنهم شعر ولم يدونوه، إن كان موجودا . وكذلك العرب الذين انضموا إليهم بعد الفتوحات خاصة، فلم يُؤَثَّر عنهم رصيد واضح من الشعر مدونا أو متوارثا يمكن استخلاؤه . ويبدو أن ذلك من تأثير خصب المنطقة وغناء وثراء أصحابها ، ولذلك صرفوا أنفسهم عن الشعر

وتوجهوا إلى اكتساب الثروات، وأما ما عثر عليه من شعر فإنه مقطوعات لا يبدو أنها لساكني "هيون" أو عنابة . وأما أشكال النثر الأخرى فإنها متوفرة وبكثرة ويمكن العودة إليها لتحلي كثير من الأمور التي نحن بحاجة إلى دراستها . إلا أنه يجب أن نكون على بينة أن ما بعنابة من الموروثات ليس كله وليد البيئة المحلية بل إن أثر الثقافات الأخرى يبدو جليا للدراس الماهر .

3 — العادات والتقاليد وأسس المعاملات اليومية الناشئة والمترسبة، مثل بعض الطقوس المعروفة والممارسة، نذكر طقوس العروس، طقوس النفاس، طقوس العلاج الروحاني . وعلى قلة المأثورات الشفوية وما يمكن أن يقال عنها فإن هناك ثراء واضحا في العادات والتقاليد والممارسات المنحدرة من عمق الزمن والمتراكمة عبر التاريخ من أصول وأعراف وبيئات متعددة ومتباينة . فهناك التأثير الفينيقي والتأثير اليوناني والروماني والعربي واللاتيني والجرماني والزنجي ، ونضرب لذلك أمثلة مختصرة لا يسمح المقام بذكر الكثير مما تحصلنا عليه أثناء دراستنا .

فالمعروف أن سكان شمال افريقيا ومنطقة المتوسط عموما أنها تحتفل بقدوم موسم الخصب (الربيع) حيث تنهيا الطبيعة، فتخصب ثمارا وتزهو ألوانا وترتوى أمطارا وتنهيا فيه كل الكائنات للإخصاب ولإعمار ومنها الإنسان، حيث يقيم حفلاته وفقا لمعتقداته وسلوكات أسلافه التي يرثها بالتقليد ، إلى جانب سلوكاته هو ونظريته الفلسفية لهذه الظاهرة وفهمه لها .

وفي الجزائر وعنابة خصوصا لا تبدو الممارسة المحلية فقط بل يبدو التأثير المتوسطي بكل خلفياته الاعتقادية، من وثنية إلى مسيحية إلى إسلامية وكلها كونت مجموعة من الاعتقادات والطقوس والشعائر (بغض النظر عن صحتها أو بطلانها) إلا أنها تتعايش في سلوكات الناس وممارساتهم الاحتفالية الموسمية، ومن ذلك ظاهرة (الاحتفال بموسم الخصب الربيع) فقد رُوي لي أن في منطقة

البساس شرق "هيون" يحتفل بقدوم الربيع بإعداد وليمة شعبية (الزردة) تجمع لها مكوناتها من السكان وتكون في بداية الربيع وطعامها المقدس الكسكسي باللحم، وعند نضجه لا يؤكل منه إلا بعد أن يأكل منه طائر معروف يسمى (فينيق) يقال إنه شبيه بالنسر (15) يوضع له الأكل على مرتفع من المرتفعات القريبة من (الزردة)، وإن لم يأت انتظروا قدومه ، وقد تطورت الممارسة بأن عدل فيها حيث استبدل الطائر (فينيق) بأي طائر يمر، وعندما يحدث ذلك يغنون ويرقصون ويفرحون .

وتتجلى هذه الممارسة أيضا في ظاهرة (بوغنجة) المعروفة في الشمال الجزائري ، ولعلها هي التي عرفت في الجنوب بظاهرة ارتبطت بيوم عاشوراء أو سيدي مرزوق ، وتمثيل قدومه، والمتزجة بالفكر الشيعي أحيانا وبالفكر الوثني أحيانا أخرى، وبالفكر المسيحي أيضا (المسيح المنتظر) إنتقلت في ممارسات شعبية إلى تلك المناطق وخاصة بسكرة . فظاهرة (بوغنجة) هي ممارسة تأتي بعد تأخر خصب الطبيعة، فيقوم السكان بتجسيده ، فيأتون بملعقة كبيرة جدا، ليست ملعقة الأكل العادية بل هي ملعقة كبيرة لنقل المرق من إناء إلى إناء آخر، وهي مصنوعة من الخشب، وتربط بعمود طويل يصل إلى مترين تقريبا ويغطي طرفها المقعر، وترسم عليه العينان والحاجبان والأنف والفم، بحيث يبدو الرأس وقد تدلت منه الجدائل ومناديل وكأنها عروس كاملة، تحملها الصبايا غير المتزوجات، يطفن بها أمام البيوت من أجل جمع الدقيق والسمن وكل ما يدخل في إعداد وليمة الاحتفال بقدوم بوغنجة رمز الخصب، ويكون ذلك في يوم من أيام الربيع الأولى أي خلال الشهر الأول من السنة البربرية . تجمع الصبايا الطعام والأموال من البيوت كل حسب مقدرته، ثم يقام حفل في منطقة سيوس عند مصب الوادي في البحر، والماء هنا رمز الخصب ، فتأكل وتغني . وهناك اعتقاد هو أنه لا يكاد يصل المحتفلون إلى بيوتهم إلا ويتزل المطر، فتخصب

الأرض ويظهر بوغنجة بعد تكريمه . وإن لم يحدث ذلك فإنهم يعودون إلى ممارسة شعيرة أخرى، إذ يعتقدون أنه إن لم ينهض فهو في سبات، فيرددون عبارات تدل على دعوته للاستيقاظ حتى تخضب الطبيعة، كقولهم : (بوغنجة حرّك راسك .. تروى ناسك) (بوغنجة سرّد الخروف .. نحّي علينا الخوف) .. الخ . وهذه الممارسة ممارسة بربرية محلي، لها أثر في عموم الشمال الجزائري، إلا أن ممارسة الطقس تختلف باختلاف المناطق وباختلاف المؤثرات والحاجات

وتوجد ممارسة أخرى لها خاصية الخصب، ولكنها ممارسة تتعلق بالخصب البشري، إذ أن هناك عيداً آخر بشرياً، هو الاحتفال بقدم موسم الخصب البشري أو التهيؤ للزواج، إذ أنه عند قدوم الربيع تعد الأسرة مأكولاتها المتقاة، وهي عبارة عن التّالشت، وأقراص الخبز المزوجة بالسمن وبيض الدجاج، ومزخرفة برسوم هندسية أغلبها حلقات أو أشكال ترسم بالخواتم أو بالسوار أو بالخلخال أو بأشياء دائرة (والملاحظ ما لذلك من دلالة في هذه الأشكال التي لايسمح لنا الموضوع بذكر دلالاتها الجنسية ..) ومعها برتقالة كبيرة منتقاة، ويذهبون إلى شرق هيبون فيجلسون يغنون ويرقصون، والصبايا اللاتي أصبحن في سن الزواج يمارسن ألعاباً مشتركة متعددة مع الذكور، منها لعبة شد الحبل ومنها السباق إناثاً وذكوراً، وفي هذا اليوم يتم اختيار الصبيّة التي ترافق الشاب في حياته فيتفقان، ويكون ذلك بعد جني المحاصيل في الصيف، ومن لم يسعفن الحظ في ذلك اليوم يذهبن إلى منبع ماء يعرف الآن بالقطارة على شاطئ البحر حيث تمارس هناك طقوس وشعائر (وربما هو مكان إقامة إلهة الزواج المعروفة في الأساطير اليونانية أو البربرية) يعتقد أنها تمنح شيئين مهمين ومن اختصاصها : 1 — الزواج، 2 — إزالة العقم، ويقدم النساء لها طعاماً شهياً، وهن يعتقدن أنها حارسة المكان تخرج من البحر فتأكل القربان

عند ذهابهن ، لذلك يرمين ما يجلبنه من مأكولات تعد خصيصا لها (لحوم الطيور خاصة) حيث يرمينها في البحر، ويقمن بحرق البخور وإضاءة الشموع، ثم في المساء يغادرن. ومازال السكان إلى الآن يمارسن هذه الطقوس والشعائر ولا يعرفن مصدرها بالرغم من أن الدين الاسلامي الغى مثل هذه الممارسات .

إن هذه الممارسة تشير إلى أن الهة الخصب والزواج البربرية، قد مورست لها شعائر ومازال سكان عنابة إلى اليوم يذهبون إليها، يقومون بنفس الممارسة القديمة بشيء من التطور .

وهناك من الطقوس والشعائر ظاهرة (خطاف العرايس)، وهذا معروف في القصص الشعبي الجزائري، وله قصة طويلة لايمكن سرد أحداثها كاملة هنا، ولكنها شبيهة بقصة آخيل اليوناني، وشبيهة بقصة شمشون ودليلة العبري، من حيث عدم معرفة مكان الفناء إلا بعد جهود . وتروي الأسطورة أن خطاف العرايس كان كائنا خفيا يخطف الصبية عندما تكون في اللحظة التي تبدى فيها أجمل وأكثر إثارة وفتنة ، وطبيعي أن يكون ذلك هو يوم زفافها ، لذلك تلجأ العامة إلى تغطية وجهها وستره، ولا تبدي العروس منه إلا مقدار ما ترى حتى لا يخطفها ، وإذا خرجت إلى بيت عريسها تخرج مغطاة يحملها رجل قوي حتى لا يأخذها من يده خطاف العرائس، ثم تسير وجوارها رجلان يحمل كل منهما سيفاً، وهكذا إلى صباحيتها، وقد استبدلت الآن السيوف بالشموع ، والناس تمارس هذا ولا تعرف لماذا الشموع بالذات، والواقع أنه تطوير للممارسات القديمة .

ونفس الشيء يقال عن العادات المتعلقة بالنفاس ووضع الموس تحت وسادة المرأة النفاس لمدة أربعين يوما، والذي تضاء فيه الغرفة التي توجد بها، وسبب ذلك أن هناك كائنا خفيا يتشاءمون من ذكر اسمه هو (القرينة) وتأقي

في فترة الأربعين يوما من النفاس تَحْنَق الصبيان إذا وجدت النور منطفئا .. وتسمى (أم الصبيان) وأحيانا تتجرأ على إيذاء الصبي دون خنقه، إن وجدت الأم قد نامت نوما عميقا، فيمرض الصبي ويقال عنه بأنه : (مَسَّاذي) . بمعنى آذته القرينة، والقرينة والقرين معروفان في التراث السامي، ويترتب عن ذلك علاج روحاني وعضوي، (كالتشلاط = تشريح الوجه) وتسبيع الملح، وتعليق تعويذة (خميسة = يد من معدن ثمين) أو تغيير موقع الصبي من أمه، وكتابة حجاب وغير ذلك من الممارسات التي يعتقد أنها تعيد للصبي توازنه ..

وهناك ظاهرة العلاج الروحاني وهو ممارسات متعددة المشارب والمنابع، ولكننا نذكر إحداها، وهي من تأثير الثقافات الزنجية وخاصة الحبشية التي نقلها العرب إلى شمال إفريقيا دون غيرها بحكم الاتصال والتجارة وهي العلاج بالحضرة وفي مصر يسمى (الزار) ولا يقوم به إلا الوصفان والعبيد (16) وتوجد الفرقة التي تقوم بهذا النوع من العلاج في عنابة وهي فرقة موسيقية راقصة تسمى : (البنقة) ومثيلتها في قسنطينة ومقرها معروف يسمى، " دار الوصفان" أو "دار بحري"، ومثلها في سطيف ووهران أيضا، ورغم اختلاف الممارسات والنوبات إلا أنها كلها تلتقي في العلاج بواسطة الموسيقى والرقص المحموم ، وتنوع الألبسة والنشرة أو " النشاري " (التي هي عبارة عن تقديم القرايين من الطيور أو الحيوانات الأخرى وفق شعائر معينة، وبقيت فرقة قسنطينة التي مازالت تقيم العلاج ولكنه قليل مقتصر على أناس من أصول البلد، فقد تحولت تلك الفرق إلى فرق موسيقية راقصة تشارك في المهرجانات وفي الحفلات العامة ، وتقدم عروضها الممزوجة بالمفاجآت الخارقة ، كبلع الزجاج المهشم ولحس الموسيقى بعد أن يشقر بالنار ويصير أحمر .. أو رشق السفايف في الجسم، وهذه الفرق شبيهة في منطقة ورقلة وتقرت وهي فرقة (العمارية) .

وهناك أثر للثقافة العبرية، خاصة ما يتعلق بالعين واستخراج الجن من المسكون وغيرها . وأعتذر عن الإطالة وعن الاستمرار في سرد الممارسات التي قمنا بالبحث عنها في منطقة هيون وهي عديدة ومتنوعة ومرتسبة من عمق الزمن . إذ أن هناك ممارسات تتعايش اليوم بيننا ولا نعرف مصدرها . والواقع أنه بالبحث والدراسة يمكن دراسة أحوال الجماعات وتطورها من خلال موروثها الذي هو مصدر من مصادر تاريخها .

4 — المعارف الشعبية والأفكار والمنقولات العقلية . وما يتعلق بتراكمات التجارب العقلية الفلسفية، وكذا التراكمات النقلية التي لها صلة بالنقل عن طريق التقليد والإضافة بمهدي من المعلومات المترسبة المتراكمة ، التي ورثها السكان المحليون عن المناخ وتطوراته وأثره عبر الفصول وأثره على الانسان والحيوان .. (17) .

5 — طرق الترويح وإزجاء أوقات الفراغ والرياضة : المصارعة التي تسمى (المعافرة والعراك والمغالبة)، وكذا لعب السيوف ولعب السباحة الغطس .. و المهارات الشعبية الفردية والجماعية، كلعب الكرة، ولعب القبب أو القاب الريفية (القاف تنطق جيما مصرية)، ولعب الفروسية وغيرها . وكذا الألعاب الأخرى الذهنية غير الجسدية كالشطرنج، أو أي لعبة ذهنية أخرى، وسواء في ذلك لعب النساء أو لعب الأطفال أو الرجال ، فإنها كلها مصدر من مصادر دراسة الابتكار الشعبي في مجال التسلية وصلة ذلك بتطور المجتمع ، ولانعدم في هيون بعض الألعاب الوافدة التي يجلبها القادمون إليها، وسواء أكانوا مقيمين ومؤقتين، أو جاليات مقيمة ، فإن تأثير هذه الممارسات سهل الانتقال .

6 — تنظيم التعليم والخدمات واسماء المعنيين بذلك، كالكاداش، الطالب، الفقيه .. ويمكن تتبع قابلية المجتمع للثقافة والبحث عن المعرفة الأخرى وتلقينها للأبناء وذلك من خلال أماكن التعليم منذ القدم وفي العهود الاسلامية

وتوزيعها بالمدينة ورغبة الناس فيها ، والمصطلحات المستعملة بها من مثل العالم، الفقيه، المقدم، الطالب (الطالب يطلق على معلم القرآن وهو بطل قصص كثيرة في التراث الشعبي الشفوي، ومحل تندر مهم في الكوميديا الشعبية) القداش، المدب .

7 — الصيدلة الشعبية وهي العلاج بالنباتات المغروسة والمزروعة، وطرق تحضير الأدوية ونظرة المجتمع للعلاج، وتاريخ العلاج ، وفهمه للمرض والصحة والبحث عن ذلك في معارفه المختلفة من قصص وأمثال وأشعار . وفي هذا المجال نجد العلاج واستعمال الأدوية المختلفة يخضع لمتنوع البيئة في غالبيته ونذكر من ذلك العلاج بأنواع الأدوية التالية :

أ — العلاج بالسوائل ب — العلاج باللحوم والشحوم ج — العلاج بالنباتات : سواء أكانت برية أم مغروسة د — العلاج بالمعادن ه — العلاج بنباتات ومعادن مستوردة . سلوك الناس في نقل المعلومات الطبية عن الآخرين ومبدأ : (إلى ما قتل يسمن) . و (سال مجرب وما تسالsh طبيب) .

8 — صناعة أدوات التجميل ومكوناتها وخاماتها والنظر إليها، وهنا تبدو الأشجار وجذورها وأغصانها وبعض المكونات من التربة والمعادن والأخشاب، كصناعة المراود وإعداد المستخلصات من أغصان الأشجار، مثل استخلاص مادة (الحرقوس) من غصن شجر الصفصاف، التي تزين بها المرأة الحاجب أو تضع بمداتها خانة على الخد، حيث يجفف الغصن ويشعل طرفه ويوضع رأسه المشتعل على حجر بارد، فيفرز مادة سوداء سائلة تجمل بها المرأة حاجبيها ، ومثله الكحل للعينين، ومادة توريد الحدود والوجنتين، بحيث تصبجان وردية لزيادة جمال المرأة ، كإعداد خلطة بوقرعون (شقائق النعمان) وخلاصة المَعْرَة والتوت الأحمر وزيت الزيتون .. الخ .

9 — الترسبات اللغوية حيث أن اللغة تحافظ على العادات اللغوية وعلى أشكال تعبير من اللغة الأم، أو تحمل كلمات ومصطلحات لها حضور من أجيال بعيدة، مثل التشارك ، البشكلة الشبرلة .. واللغة وعاء لكل منجزات الانسان وسلوكاته ومهاراته ، تحفظها وتعبر عنها وتصفها، وتظل دائما أداة مهمة لوصول التراث المادي والشفوي للأجيال، ولنضرب على ذلك مثالا للترسبات اللغوية ، فقد ورد لفظ (بعل) وعرف على أنه إله وثنى، وبقي في اللغة عند العامة يحمل ذلك، والعامة في عنابة يقولون عن بعض المزروعات التي تتأثر بالجو الندي لقربها من البحر بأنها : (تبت بعلي) أي أن بعل هو الذي يخصبها، وقد عرف الإله بعل عند الفينيقيين بـ " إله الخصب "، وانتشرت عبادته لدى شعوب المتوسط، وخاصة في شمال افريقيا، وعبد ه العرب . وفي اللغة العربية البعل زوج المرأة فهو بعلها الذي يخصبها .

ومن هنا يقال في عنابة : (إن النبات الفلاني ينبت بعلي)، كقولهم : (الطماطم تنبت بعلي، (الجلبانة تنبت بعلي) ..

ومنها استعمالهم لكلمة : (هيلولة) دلالة على أن الشخص استعمل حفلا وأتى شيئا يفوق طاقته، والهيلولة في حقيقتها عيد من أعياد اليهود .

10 — التعاليم الدينية التي عرفتھا المدينة ودرجة الايمان بها وأثرها على السكان وعلى المجتمع عموما . وبالإمكان العودة إلى التعاليم الدينية التي عرفتھا المدينة وهي أربع :

أ — الديانة الوثنية، وهي بوبرية كعبادة الكبش، وعبادة الثور والتيس ..، وقد ترسب ذلك وبقي بارزا في الاهتمام (بالفحل = الكبش) وتربيته وإعداده للمقاومة ورد الخطر، وتنظيفه ووضع الحناء على صوفه ..

وكذلك الثور ، فإن عبادته ذهبته وبقي منها كثير من الناس يأخذون قرني الثور ويجففانها ويعلقانها أمام البيوت أو المحلات . وقد كانت في القدم

توحي بأن الآلهة الثور إله القوة يدفع الخطر عن السكن أو المحل، وحتى استعمال قرن الثور للعطاس أو (النفة) يمنح الشخص النشوة والقوة والحيوية ..

وغير بربرية، وهي عبادة بعض الآلهة الفينيقية واليونانية والرومانية، مثل ماذكرنا الآلهة (فينيق) والآلهة (بعل) وكذا الآلهة المنصبة على منابع الماء كإلهة الزواج في القطارة. وإلهة الصيد في رأس الخمر التي تقدم إليها القرابين لحماية الصيادين في البحر.

ب — الديانة المسيحية وهذه تتجلى آثارها في بعض الممارسات والزيارات التي يمارسها السكان دون علم من مثل زيارة لابلونة والقديس أوغسطين وغيرهما.

ج — اليهودية .

د — الديانة الإسلامية، وهي التي جاءت والغت كل ماسبقها من ديانات وثنية ما عدا المسيحية والعبرية، وتتجلى آثارها في كل سلوكات الناس وأعمالهم وممارساتهم وهي الديانة الجارية في الجزائر منذ خمسة عشر قرنا. وتتجلى في الآثار الإسلامية وفي الكتب والزوايا والحركات الصوفية والمذهبية.

11 — الأنظمة والتشريعات :

أو ما يعرف بالقوانين التي أسست بها المجتمعات عبر تاريخها، وهذه الأنظمة مهمة للباحث الذي يكتب ويتابع التاريخ الثقافي لمجتمع ما، لأن الأحكام في الأصل أحكام عقابية أو جزائية لسلوكات الأفراد في علاقاتهم ببعضهم أو علاقاتهم بالسلطة أو المحيط (بمعنى البيئة)، أو علاقاتهم بالعوامل الأخرى، نموذج الاستعمار وتفسير سلوك المواطن إزاء العدالة، إزاء الشرطة الاستعمارية. من مثل لماذا الجزائري وخاصة العنابي يخشى العدالة، وعندما يسمع أنه سيحضر إلى القضاء شاهدا أو متقاضيا .. أو لأي أمر مهما كان نوعه يتملكه الرعب والخوف، لأن هناك ثقافة انتشرت عبر سنين الحكم التركي والفرنسي أنه كلما ذهب إلى العدالة ذهب حقه وذهبت أرضك، والرشوة هي الأساس في الحكم

في ذلك الزمان . ومن ذلك مايروى عن (عيشة راجل) أو (عيشة القادرة) .
ولمعرفة الظاهرة ودراستها لابد من العودة إلى القوانين . وكذا الخوف من دعوة
شخص ما للمثول أمام الشرطة أو الدرك أو أي جهة تمثل السلطة والقانون،
فقد عرف الجزائريون وخاصة العنابيون القمع والقهر والتعسف خلال تاريخهم
وتكون لدى العنابي بل الجزائري مركب نقص، وهذه كلها مهمة لمعرفة
الظروف النفسية والاجتماعية للمواطن في علاقاته بالسلطة، وبقدر معرفة
الأحكام بقدر تبين الوضع النفسي والاجتماعي، ودرجة الوعي في المجتمع .

— فالقوانين تتيح معرفة درجة النضج الحضاري الذي في ضوئه تتحدد
الابداعات الثقافية التي تسير أو تعادي أو تهادن القوانين والأنظمة، كما أنها
صورة للصراع الذي ينشأ داخل مجتمع ينمو ويفضي إلى حياة أخرى قد تنحط
وينهار المجتمع أو يسمو وينحو نحو حضاريا .

ومقارنة القوانين في مجتمع ما بقوانين في مجتمع آخر تكتشف درجة النمو
الثقافي والحضاري عموما لمجتمع الدراسة .

12 — النشاط الاقتصادي للمجتمع عن طريق دراسة الحركة التجارية
والتبادل التجاري وحركة التصدير والاستيراد . فقد عرف عن مدينة هبيون أنها
مرفأ اقتصادي منذ مايقرب من 3000 سنة، وأنه كان يصدر الخمر والحبوب
والحيوانات والجلود والعسل والثمار المجففة والمرجان .. ويستورد الأقمشة
وبعض المنتجات الأخرى . وهنا يمكن تتبع ذلك في ضوء العلاقات السياسية
والثقافية بين الشعوب التي لها صلة بعنابة، لدراسة البنية التجارية والاقتصادية
للمدينة ..

13 — العلاقات السياسية والثقافية بين المدينة وبلدان المتوسط الأخرى .

14 — بقايا النمطية العرقية لدى الأسر المتبقية الوافدة وغير الوافدة . لتحديد السلوكات العامة والانتماء القبلي وتحديد ثقافة المجتمع، من ذلك العلاقات المختلفة .

15 — نظام التغذية والتغذي وأشكالها وألوانها ومدى استفادة المجتمع من منتوجات البيئة وتطوير نظام الغذاء وتقاليده، ومعرفة خصوصياته وألوانه وأطباقه كالغذاء المعتمد على المنتج المزروع أو البري ومثله الغذاء من المنتج الحيواني المدجن أو المربي أو مايشابهه، — ثقافة الطعام في البادية وفي الريف وفي المدينة وفي مختلف المناطق التي تتباين تضاريسها .

16 — مكونات المدينة الحالية وتنظيمها العمراني : الحارات والحوامات والحمامات وتوزيع الشبكة الاجتماعية، ونعني بذلك المدينة المقسمة تقسيما طبقياً ومهنياً، وسكن الحرفيين والموظفين والساسة والتجار، والجنود .. الخ .

17 — بعض المنتوجات الزراعية الحالية وما اشتق منها، كمشتقات الخيزران وما يعد من سلال وأسرة وكراسي وغيرها، وكذا ما يشتق من النخيل ومن سبغه وعراجينه وجذعه، وما يصنع من التمر من أغذية .

18 — الأسلحة القديمة المتبقية منها أو المرسومة على جداريات أو موصوفة في كتب أو ألواح وأدوات أخرى .

19 — فنون الزحرفة في المشرفيات (المشربيات) أو النوافذ وتقاليده المرأة على الشرفات .

20 — الأعياد والمواسم الاحتفالية الموسمية المتعلقة بالطقوس وغيرها .

هذه بعض المصادر التي ستوسع في دراستها إن شاء الله مستقبلاً وهذا الجانب الذي نعمل في اتجاهه هو المسكوت عنه في التاريخ وهو الذي فقدناه لأنه يكون الخصوصية الحضارية للإنسان في البيئة، ويعطيه ملامحه وعبقريته وابداعاته في البيئته (المكان) بكل متطلباتها ومنتجاتها ومؤثراتها، فالبيئة لها

حضور قوي في ثقافة الانسان . ولذلك فإن من تصدى لمثل هذا الموضوع لابد له من دراسة علوم أخرى وهي :

— علم النفس

— علم الاجتماع

— التاريخ

— علم الفولكلور

— الإمام بثقافة المجتمع القديمة والمعاصرة

— أن تكون له المقدرة على التعايش مع مختلف فئات المجتمع وطبقاته .

الهوامش والمراجع :

1— تعمل بلدية عنابة عبر لجنتها للثقافة والرياضة والسياحة منذ 1998 على إحياء مهرجان وطني سنوي خاص بهيون، يقام في مسرحها الأثري في شهر أوت من كل سنة، وتدعى إليه فرق فنية وموسيقية وطنية . وعلمت أن البلدية تسعى إلى جعله متوسطيا وخلال أيام المهرجان تقام ندوات ومحاضرات، يدعى إليها أساتذة جامعيون، تتناول تاريخ هيون عبر مراحل وعصوره، وهذه المقال في أصله محاضرة القيت بمناسبة انعقاد مهرجان هيون الثاني بقاعة الاحتفالات بالبلدية يوم 15. 08. 1999 .

2 — راجع : ابو عبيد البكري — المغرب في ذكر بلاد افريقية وبلاد المغرب وهو جزء من الكتاب المعروف بالمسالك والممالك — مكتبة أمريكا والشرق — باريس 1965 . وكذلك : السعيد دحماني — هيون الملكية — الوكالة الوطنية للآثار وحماية المعالم التاريخية — الجزائر — 1991 . وأيضا كتاب الحسن الوزان (ليون الإفريقي) — وصف افريقيا . ومجلة الأصالة العدد 35/34 — 1976 (عدد خاص عن عنابة) صدر عن وزارة الشؤون الدينية بالجزائر . وكتب التاريخ الأخرى

3 — روى لي كثير من فلاحي الشرق الجزائري بمجھات عنابة — قسنطينة — سوق اهراس — قلالة — سطسف — الأوراس — بيضاء برج — بريكة — مسيلة — نقاوس .. أن بداية الربيع تكون يوم 21 فيفري بانتهاء الليالي وبظهور الطيور المهاجرة .. أما في منطقة البليان والباور ومنطقة زواوة بالقبائل الكبرى فإن الربيع يبدأ يوم 28 فيفري من كل سنة

- ، أي عند بداية أيام الحسوم الثمانية .. ويبدو أن التحديد الأول جاء مقابلا للتقويم الروماني حيث أن الربيع في أوروبا يخل بداية من يوم 21 مارس من كل سنة ..
- 4 — افيلولة : عيد من أعياد اليهود . راجع : فوزي سعد الله — يهود الجزائر — شركة دار الأمة — الجزائر — ص 134 وما بعدها .
- 5 — كان بالمدينة نوعان من الأسواق : أسواق إنتاجية يتمركز بها الحرفيون ينتجون احتياجات المدينة والمنطقة، وربما لبوا حاجات أماكن أخرى بعيدة، ويمكن ذكر بعض منها بقي إلى فترة الاستقلال مثل : سوق الحياكة، سوق النجارين، سوق الخرازين سوق الفخارين، سوق العطارين، سوق الجيارين، سوق الحدادين، سوق الخجامين وأدواتهم ، سوق الحدادين، سوق الصاغة ، سوق السلاح كالسيوف والمضى والسكاكين ..
- أسواق تجارية بمعنى أنها تقدم خدماتها إلى سكان المدينة أو القادمين إليها مثل : سوق الخواتين ، سوق الخبوس، سوق العصافرية، سوق الخضار، سوق المواشي ..
- 6 — ككتابات لوكيوس أبوليوس المندوري (المداوروشي) ولاية سوق اهراس . ولد عام 25 م وتوفي بعد 180 م وهو ينسب إلى قبيلة الحيتول البربرية .. تلقى علومه في قرطاجنة وأثينا وروما — اهتم بالفلسفة والأدب والطب وعلوم ما وراء الطبيعة . كتب باللغة اللاتينية ونال شهرة واسعة . من أهم مؤلفاته : الجحش الذهبي Assinus Aureus وهو عبارة عن رواية أدبية . الأزاهير Florida . الدفاع Apologia . قرين سقراط de Déo Socratis .. وغيرها راجع : لوكيوس أبوليوس المندوري — الجحش الذهبي ترجمة د . علي فهمي خشيم — المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان — طرابلس — الجماهيرية — ط 1984/1983 . وكذا العالم البربري يوبا الثاني .. راجع الميلي تاريخ الجزائر العام — ج 1 .
- 7 — راجع : ك . الابراهيمى — تمهيد حول ما قبل التاريخ في الجزائر — ترجمة محمد شنيى و رشيد بورويية — الشركة الوطنية للنشر والتوزيع — الجزائر — 1982 — ص 89 .
- 8 — راجع : عبد السلام بوشارب — افكار أمجاد وأنجاد — المتحف الوطني للمجاهد — الجزائر .
- 9 — أبو عبيد البكري — المغرب في ذكر بلاد افريقية وبلاد المغرب — مرجع سابق — ص 83 .

- 10 — مارمول كرنخال — افريقيا — ج 3 — ترجمه عن الفرنسية محمد حجي وآخرون — دار نشر المعرفة — الرباط — 1989/1988 .
- 11 — أبو عبيد البكري — المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب — مرجع سابق ص 55
- 12 — راجع لكاتب المقال محاضرة القاها بمناسبة المهرجان الوطني الأول لهيون عام 1998 بعنوان : هيون الملكية تاريخ حضاري وابداع ثقافي — مخطوطة بأرشيف بلدية عنابة ، وفي طريقها إلى النشر بحوليات أكاديمية الشرق الجزائري بقسنطينة ..
- 13 — محمد بن عبد المنعم الحميري — الروض المعطار في خبر الأقطار — تحقيق إحسان عباس — مكتبة لبنان — بيروت — 1975 ص 115 .
- 14 — راجع : كرنخال — افريقيا — مرجع سابق . وكذلك أبو عبيد البكري — المغرب في ذكر افريقيا وبلاد المغرب — مرجع سابق
- 15 — يبدو من الروايات التي سمعتها أنه طائر مهاجر ، يحل في موسم الربيع عندما يتلطف الجو ، لأن العامة ترى أنه لم يعد له وجود ، أي أنه انقرض ، ولذلك استبدل بأي طائر يمر دون مراعاة اقباله على حفنة الطعام المقدس أو عدم إقباله ..
- 16 — في هذا الموضوع راجع : د . سلمى المصري — الزار دراسة نفسية أنثربولوجية — الهيئة المصرية العامة للكتاب — القاهرة — 1975 .
- 17 — راجع مقالنا (الأنواء والفلاحة في الأمثال الشعبية الجزائرية) مجلة المأثورات الشعبية — السنة 11 — العدد 43 — مركز التعاون لدل الخليج العربية — الدوحة — دولة قطر .
- محاضرة القيت بقاعة بلدية عنابة يوم 1999/08/15 بمناسبة انعقاد مهرجان هيون الثاني

(لاحظ أن هذه الأمثلة كلها تحيل على ثقافات عديدة بعضها
مر من هنا وبعضها الآخر وليد البيئة المحلية وبعضها الآخر تكون
نتيجة امتزاج الثقافات عبر الزمن قل هذا في نهاية الحديث عن
هذه الأمثلة وكيفية الاستفادة منها)